# البناء الفكري والفني لرواية اليوم الواحد
# دراسة فى رواية : (قرية ظالمة)
# لمحمد كامل حسين

✍ إعداد الدكتور
**محمــود محمـد حمــزة**
**أستاذ مساعد الأدب العربى**
**كليـة الآداب ـ جامعـة دمنهور**
m.hamza-ef@ng.edu.eg

# البناء الفكرى والفنى لرواية اليوم الواحد دراسة فى رواية (قريــة ظالمــة) لمحمـــد كامــل حســـين

**محمود محمد حمزة**
**قسم الأدب العربى - كلية الآداب - جامعة دمنهور - مصر**
**البريد الاليكتروني**: m.hamza-ef@ng.edu.eg

**الملخص:**

محمد كامل حسين فيلسوف وعالم ومفكر كان صاحب رؤية وموقف فى الحياة وفى الوجود واللغة والمعرفة، وتعد رواية قرية ظالمة بداية رواية اليوم الواحد في الأدب العربي، ومع أن الرواية تحفل بأصوات وشخصيات متعددة إلا غلبة صوت المؤلف كان الطابع المميز فيما يطلق عليه السرد الذاتي، ويتمحور البناء الفكري لهذه الرواية حول ثلاث أفكار رئيسية هى : الضمير- النظام - الحب وقد مال محمد كامل حسين فى روايته قرية ظالمة إلى تفتيت البنية السردية من خلال إلغاء منطق الحبكة الفنية واعتمد فى ذلك على ما يطلق عليه السرد الذاتى الذى تقدم فيه الأحداث من رؤية الروائى،فهو يخبرنا بكل شىء ويعطينا كل شىء ولا يمنحنا قدراً من التأويل أو التفكير، وعلى الرغم من ازدحام قرية ظالمة بكثير من الشخصيات والأصوات المتعددة إلا أنها صدى لصوت المؤلف، فما كانت الشخوص إلا منتج المخزون الثقافي للمؤلف ممــا أدى إلى تعدد الشخصيات واختفاء البطل لأنهـا تمثـل بطانـة أيديولوجية للمؤلف.

إن أهم ما يميز لغة (قرية ظالمة) هو الوضوح والمباشرة وهي لغة متسقة مع قناعة المؤلف ودعوتـه ومؤلفاتـه نحـو إيجـاد معنى جـديد تتسم بالقدرة على التواصل المباشر بين المبدع والمتلقي، بين الكاتب والقارئ، بين المرسل والمستقبل.

**الكلمات المفتاحية** : - البناء الفكرى - البناء الفنى - قرية ظالمة - رواية اليوم الواحد - الضمير - منطق الحبكة - اختفاء البطل - النسق الثقافى .

**The intellectual and artistic construction of a one-day novelStudy in a novel (unjust village) Mohamed Kamel Hussein**

Mahmoud Mohamed Hamza

Department of Arabic Literature - Faculty of Arts - Damanhour University - Egypt

**Email**: m.hamza-ef@ng.edu.eg

**abstract** :

Muhammad Kamil Hussein, a philosopher, scientist and thinker, had a vision and a position in life

In existence, language, and knowledge, the unfair village novel is the beginning of the one-day novel in Arabic literature, and although the novel is filled with multiple voices and personalities, the author's voice was the dominant character of what is called self-narration, and the intellectual structure of this novel revolves around three main ideas:

Conscience - order - love

Muhammad Kamil Hussein, in his novel, Unjust Village, tended to break up the narrative structure through canceling the logic of the technical plot and relied on self-narration.

In self-narration the events progress from seeing the novelist, as he tells and gives us everything and does not give us a degree of interpretation or thinking, and despite the crowd of many people and multiple voices in the novel, it echoes the author's voice, so people were nothing but the product of the cultural inventory of the author, which led to multiple characters and the disappearance of the hero because it represents an ideological lining of the author.

The most important characteristic of the (unjust village) language is clarity and directness, which is a language coordinated with the author's conviction, his invitation, and his works towards creating a new meaning characterized by the ability to communicate directly between the creator and the receiver, between the writer and the reader, between the sender and the receiver.

Keywords: intellectual construction - artistic construction - unjust village - one-day novel - conscience - plot logic - the disappearance of the hero - the cultural pattern.

بسم الله الرحمن الرحيم

# توطئة

ما الذى دفع المفكر، والفيلسوف، والجراح : (محمد كامل حسين) أن يجنح إلى تلك الفكرة الجديدة شكلاً وموضوعًا فى روايته الأولى والأخيرة :(قرية ظالمة)؟

لقد أثارت تلك الرواية زمن صدورها عام ١٩٥٣ دهشة كثير من المثقفين، وزاد اهتمامهم بذلك الجراح الفيلسوف حتى صار اسمه مقرونا بروايته، وترجمت الرواية إلى الإنجليزية، والفرنسية، والأسبانية، والتركية، واستحق من أجلها – على غير العادة – جائزة الدولة فى الأدب عام ١٩٥٧، كما نال جائزة الدولة فى العلوم عام ١٩٦٧، فصار أول مصري يحوز الجائزتين كلتيهما.

ما الذى دفع هذا الطبيب الفيلسوف الذى درس الطب فى (ليفربول)، وأسس جراحة العظام فى مصر، وأنشأ مستشفى الهلال، وكان أول مدير لجامعة إبراهيم :(عين شمس حاليًا) ألا يتخلى عن رغبته العارمة فى الانتاج الأدبى والفكرى فينتج :

**- قرية ظالمة (رواية).** **- قوم لا يتطهرون (مجموعة قصص).**
**- الذكر الحكيم (كتاب).** **- وحدة المعرفة (كتاب).**
**- المتنوعات (كتاب).** **- طب الرازى (كتاب).**
**- التحليل البيولوحى للتاريخ (كتاب).** **- اللغة العربية المعاصرة (كتاب).**
**- النحو المعقول (كتاب).** [1]

(١) راجع : جمال الدين سامى : الدكتور محمد كامل حسين. العالم والأديب. مجلة المجلة – العدد ١٢٢ فبراير ١٩٦٧.

فتراه فى وحدة المعرفة يسعى إلى ترتيب تلك المعرفة، ويجعل العلوم الطبيعية قاعدتها الثابتة، ويبنى فوقها العلوم البيولوجية، ثم تكون قمتها العلوم الإنسانية، فهو يبدأ فى بحث من الإلكترون فى أعماق الذرة وينتهى فى خاتمة المطاف إلى **الله**.

ولقد أثار هذا الكتاب جدلاً كبيرًا بين (العقاد، ومحمد كامل حسين)، ذلك أن (العقاد) نشر فى جريدة الأخبار ما يدل على أن (محمد كامل حسين) قد أخذ مضمون هذا الكتاب من كتاب : " **الفضاء والوقت والإله** " (Space, Time, and Deity) للكاتب : (الكسندر صمويل)، حيث نشر (الكسندر) كتابه قبل صدوركتاب (محمد كامل حسين): (وحدة المعرفة) بـ ستة عشر عامًا، أى عام ١٩٣٤، وزاد الأمر جدلاً وجدالاً انحياز الدكتور (زكى نجيب محمود) إلى (العقاد) فى رأيه، وكان الجدل أن الموضوع ذاته تم تناوله من قبل المؤلفين بشكل متشابه، وإن (محمد كامل حسين) وصفًا وعلمًا اعتمد فيه على تشريح الخلايا العصبية فى الدماغ ومراكز الأعصاب والمسارات الإلكترونية التى تؤثر على حركة وحياة الحشرات والحيوانات والإنسان، ولم يستفد من هذا الجدل الفكرى الدائر بين (العقاد، ومحمد كامل حسين) إلا القارىء وإن كان (العقاد) ظل مُصرًا على رأيه. [١]

---

(١) راجع :

**Kamel Hussein, A great teacher and philosopher, (١٩٠١–١٩٧٧), written by Prof. M.K. Booz published in (The Ambassadors Magazine), The forum of cultures and civilization Volumes Issue ١ (January ٢٠٠٥).**

أما كتابه : (الوادي المقدس) فهو محاولة لإثبات الأسس السيكولوجية للدين، والأساس الفسيولوجى للأخلاق فهذا الوادي المقدس :

" هو البقعة من الأرض، وهو القطعة من الزمن، وهو الحالة النفسية التى تسمو فيها فوق طبيعتك وطبيعة الأشياء، فوق ضروريات الحياة، بل فوق حدود العقل، حيث يكون إيمانك بما تؤمن به إيمانًا خالصًا لا يشوبه شك ولا يعتريه ضعف".(١)

بينما حاول (محمد كامل حسين) فى كتابه : (الذكر الحكيم) أن يقدم للمسلمين ممن نشأوا على التفكير الحديث ما يقربهم من فهم القرآن، وأن يقدم للمسلمين من غير العرب ولغير المسلمين شرحًا يفهمون به القرآن من حيث هدفه فى الهداية وكونه أصل العقيدة الإسلامية، وأكمل تعبير عن خصائص النفس.

الرجل إذن – صاحب موقف ورؤية ولا جدال، وليس أدل على ذلك من تلك الرؤية الجريئة التى صدم بها الجميع فى بحثه النحو

(١) محمد كامل حسين * الوادي المقدس : ط دار الشروق صـ٧.

المعقول، لا سيما وأنه كان أحد أعضاء مجمع اللغة العربية عام (١٩٥٣)، حيث يدعو إلى تيسير اللغة حتى لا تكون صعوبتها مدعاة لانصراف الناشئين عنها وإعراضهم عن معرفتها وتذوقها حيث يقول (متمنيًا) :

" ليت (علي بن أبى طالب) قال (لأبي الأسود الدؤلى)، انح هذا النحو، ارفع الاسم بالخبرية، وانصبه بالتكملة، وجره بالحروف، أو الإضافة أما الفعل فارفعه، حيث لا يكون منصوباً بالغائية أو مجزوماً بنقص أو شرط، واجعل بناء الكلمات التى لا تعرفها على نسق ما تعرفه من مأثور القول ". (١)

فلو قال (علي بن أبى طالب) ذلك (لأبى الأسود) – من وجهة نظر : (محمد كامل حسين) لكانت الفصحى اليوم سهلة على جمهور المتعلمين والمثقفين، ولكانت صحة الكلام ميسرة على أكثر الناس.

ولم يتوقف الأمر عند (علي بن أبي طالب)، بل تمنى (محمد كامل حسين) على سيبويه، وابن جنى، حتى تظل كتبهم موضع درس الباحثين فى أساليب التفكير عند العرب فى ذلك العهد، كما تمنى أن لو كان الناس قد قالوا (لابن مالك) :

(١) محمد كامل حسين * النحو المعقول – مكتبة النهضة المصرية القاهرة. صـ٢٤.

" ألفيتك هذه أحاجي وألغاز ولا تدل على قدرتك الفائقة على نظم مالا يصح نظمه، ولا فائدة منها إلا أن يجعل الطلاسم مقبولة عند بعض الناس، إن ألفيتك يضيق بها النظر اللغوى فتحجب عن الدارسين لها الآفاق الواسعة للغة ".[1]

ولا أريد الدخول فى تفاصيل فكر، وعقل : (محمد كامل حسين)، فمؤلفاته وأعماله وآراؤه وعبقريته تحتاج إلى بحث طويل قادر على الوقوف على تأملات ذلك الرجل الذى جمع بين عبقرية العلم و روعة الأدب، ويمكن القول إن (محمد كامل حسين) مفكر من طراز رفيع، ومازالت أفكاره تثبت أصالتها رغم مرور الزمن.

**(قرية ظالمة) رواية اليوم الواحد :**

روايات اليوم الواحد من أصعب أنواع الكتابة الروائية، ذلك أنها تحتاج إلى كاتب، متمرس، قادر على سرد روائى يتسم بالإيقاع السريع والتركيز على التفاصيل وهو ما تجسد بصورة واضحة فى رواية تشارلز ديكنز:**(The CHRISTMAS CAROL)**.

(١) **محمد كامل حسين * النحو المعقول. صـ٢٥.**

والتى تحكي قصة الرجل العجوز بخيل العواطف والمشاعر، ورواية (جيمس جويس) : (ULYSSES) عام ١٩٢٢، والتى نشرت للمرة الأولى على حلقات فى صحيفة : (The Little River) الأمريكية بين شهري مارس ١٩١٨ وديسمبر ١٩٢٠ والتى دار حولها الكثير من الجدل، وحديثًا تعد رواية (The hours) للكاتب الأمريكى: (مايكل كنجهام) من أكثر الروايات تجسيدًا لرواية حدث اليوم الواحد، حيث تدور الرواية حول ثلاثة نساء من أجيال مختلفة نتابع أحداث يوم واحد فى حياتهن فى أعوام : (١٩٢٣ – ١٩٥١ – ٢٠٠١) كل واحدة من هؤلاء النسوة تعيش حياة الوحدة حتى وإن كانت محاطة بالأصدقاء، وقصة حياة كل واحدة منهن تحتوى على محاولة الانتحار. (١)

وفى الأدب العربى، كان (محمد كامل حسين) رائدًا فى هذا المجال، ذلك أن روايته : (قرية ظالمة) تعد الرواية الأولى التى تصور أحداثها أحداث يوم واحد فى أغلب الظن، هو يوم إدانة بن إسرائيل للمسيح وحمله إلى الصليب فاقترفوا بذلك جرمهم الأكبر. (٢)

---

(١) راجع : شكري الماضى : أنماط الرواية العربية الجديدة، عالم المعرفة – صـ١٦ عدد ٣٥٥.

(٢) قرية ظالمة : المقدمة. د/ صلاح فصل. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧ صـ٩.

" فأحالو أورشليم القرية الوادعة التى احتضنت رسالة السماء إلى جحيم ظالم ".

إنه يوم جمعة، يوم انتشر فيه الضلال، وسيطر الشر، وتوارى الحق لم يشفع لهذا اليوم على بن إسرائيل بالرسل والديانات، ولم يستطع نظام الرومان أن يقف عاصمًا، فغابت عن القوم علماء وقواد وحكماء ودهماء عناصر الفكر والعقل والرحمة، كأنهم لم يكن لهم دين ولا عقل.

" فلما عزموا أن يصلبوه لم يكن عزمهم إلا أن يقتلوا الضمير الإنساني ويطفئوا نوره، وهم يحسبون أن عقلهم ودينهم يأمران بما فعلوا أوامر الضمير، ولم يفطنوا أن الناس حينما يفقدون الضمير لا يغنيهم عنه شيء ". (١)

**الحدث إذن هو :(حمل السيد المسيح للصلب)، أما الرؤى فثلاث :**

رؤية :(عند بني إسرائيل) متمثلة فى مكانها ورموزها : " قمة الجبل، رجل الاتهام – دكان الحداد – المفتي – لازار – قيافا – دار الندوة ".

(١) قرية ظالمة : صـ١٨.

ورؤية :(عند الحواريين) متمثلة فى: (المجدلية – الجندي المسيحي - حوار الحواريين وخروجهم).

أما الرؤية الثالثة :(فعند الرومان) متمثلة فى : (القائد الحازم – الخائن – المحاكمة – بيلاتوس – ثم أظلمت الدنيا – عودة إلى موعظة الجبل).

ثم تأتى كلمة الختام التى ترى أن الناس لا تتعظ، لأنها لوتتعظ لكان لها فى ذلك اليوم عبر وعظات، ولكنهم لا يتعظون أبدا.

**البنـــاء الفكـرى :**

اعتماد الرواية على الحدث الديني أو التاريخي لا يعنى إعادة كتابة الموروث بطريقة روائية، لكنها إعادة انتاج التاريخ برؤية ذاتية تعبر عن عقل وفكر الكاتب، لكن تبقى دائمًا كتابة الرواية التاريخية محفوفة بالمزالق، يأتي على رأسها كيفية إعادة انتاج الحدث التاريخى برؤية درامية، لأن الشخصيات فى التاريخ لها وجود محدد وكذلك الأحداث التاريخية من حيث الزمان والمكان لا سيما إن الشخصية الرئيسية فى الحدث نبي دار حوله الخلاف وكثر حوله الجدل على مر الأزمان والعصور.

**لكن السؤال :**

هل تصنف : (قرية ظالمة) باعتبارها رواية تاريخية، أم رواية أخلاقية ؟ وهل استطاع (محمد كامل حسين) أن يجعل روايته قائمة بين مرجعية تاريخية دينية وأخرى مرجعيـة تخيليـة ؟ الأولى تتصل بالحـدث التاريخي الديني والثانيـة تتصل بالحـدث الروائي.

" إنها نموذج بديع للعمل الفنى الكلاسيكى الذى يستحق مكانة دائمة فى ذاكرة الأجيال المتلاحقة، تنتظم مع كوكبة الأعمال الروائية التى تدور فى فلك الرؤية التاريخية، وتفسيراتها المعاصرة والتى خطتها أقلام طليعة رائدة لأمثال : (طه حسين، ومحمد فريد أبو حديد، وعلى الجارم)، ممن أشبعوا

الثقافة العربية تأملاً نقديًا، وحوارًا معرفيًا، وأسسوا وعي الأجيال التالية لهم ". [1]

إن (محمد كامل حسين) كان أحد المفكرين والمثقفين المصريين الذين آمنوا برسالة الأدب الأخلاقية فجعل التاريخ إطارًا لروايته حتى يستطيع أن يعقد شبكة عريضة من الأفكار، والآراء، والتساؤلات، والرؤى الأخلاقية، معتمدًا على التحليل العقلي المطول للمواقف، والمذاهب، والآراء، وما التاريخ فى تلك المواقف إلا إطار يقدم المؤلف من خلاله أفكاره وآراءه.

(١) قرية ظالمة : المقدمة. صلاح فصل. صـ١٠.

**وقد وجدنا أن المحاور الفكرية لرواية (قرية ظالمة) تدور فى إطر ثلاثة هى :**

**الضمير - النظام - الحب**

**أولاً :الضمـــير :**

يؤكد اللاهوت الكاثوليكى على كون الحياة الأخلاقية تنطلق من مبدأ أساسي هو استقلالية الإنسان، هذا الإنسان الحر والمسئول مسئولية شخصية عن أفعاله تلك الأفعال النابعة من الضمير الفردي.

" فالمسيح لم يبلغ الشريعة، بل أكملها بالانتقال من الأنا نحو الآخرين، وهو بذلك قد خطى بالبشرية خطوة عظيمة لأنه نقلها من الدينامية الأخلاقية القائمة على منطق اتباع الشريعة، إلى العلاقة مع الآخر القائمة على المحبة، هذه المحبة هى الشريعة الجديدة ". [1]

وبتلك الرؤية يصبح الضمير الإنسانى مكان الربط بين الحرية الإنسانية، والشريعة الإلهية، وأى فصل بين الحرية والشريعة يشوه دور الضمير إذ يحرمه من المعايير، و القوانين الضرورية للتمييز، وهذا يخالف ما وصل إليه : (فرويد) من أن عقدة : (أوديب) هى التى تشعل الشرارة الأولى فى ظهور الحس الأخلاقى والدينى، ومن ثم

(١) يوأنس لحظى جيد : مفهوم الضمير بين النظرية الفرويدية واللاهوت الكاثوليكى المعاصر : المركز الدائم للتنشئة المسيحية : صـ٤.

الضمير لدى الفرد، حيث يتصارع لدى الإنسان إحساس مزدوج بين الرغبة والرفض.

" وهذا الحس يمر بمراحل عدة حتى يصل إلى أن يصبح منظومة أخلاقية يحكمها الأنا الأعلى، والضمير جزء من الأنا الأعلى ". (١)

الضمير (إذن) يحتل مساحة كبيرة من الفكر المسيحي، ويحتل مساحة لا تقل حجمًا وأهمية من رواية : (قرية ظالمة).

فالكاتب حين يلخص ذلك اليوم الذى سار فيه اليهود بالمسيح إلى الصلب يرى أنه اليوم الذى أراد الناس فيه أن يقتلوا ضميرهم :

" وفى أحداث ذلك اليوم تبيان ما يدفع الناس إلى الإثم، فلم يحدث فى العالم شر إلا كان أصله ما يريد الناس من قتل ضميرهم، و إطفاء نوره، والتماس الهدى من غير سبيله ". (٢)

وما كانت دعوة المسيح إلا أن يحتكم الناس إلى ضمائرهم فى كل ما يعملون أو يفكرون، فلما عزموا أن يصلبوه لم يكن عزمهم إلا أن يقتلوا الضمير الإنسانى.

---

(١) المصدر السابق : صـ٤.

(٢) قرية ظالمة : صـ١٨.

وينشغل (محمد كامل حسين) فى : (قرية ظالمة) بالعلاقة بين الضمير الفردى والضمير الجماعى، ويرى أن ضمير الفرد لا يمنع أن ترتكب الجماعة أعظم الذنوب، ما دامت ترتكب باسم الجماعة.

" فالجماعات لا ضمير لها، ولا يزعج ضمير أحد من أفرادها ما ترتكبه جماعته مهما يكن الإثم عظيمًا ". (١)

ويستخدم (محمد كامل حسين) حديث التاجر للحداد الذى يصنع الصليب الذى سيؤخذ المسيح إليه وسيلة لطرح فلسفة الجماعة فى التهرب من الذنب أو توزيع المسئوليات، بصورة تضيع الحقيقة وتخفي الجاني، فحينما أخذ الحداد المال وهم أن يلقيه فى أعماق الكور هجم عليه التاجر قائلاً :

" إن كان هذا الرجل كاذبًا (يقصد المسيح) فموته حلال لا غبار فيه، بل نثاب عليه جميعًا، وإن كان صادقًا، وكان قتله ظلمًا... فاعلموا أني حسبت لذلك حساباً طويلاً، هب قتله جريمة كبرى يعاقب عليه الله فنحن فى منجاة من هذا العقاب، أني أعلم ما سيعمل بالحديد ولكنى لا أصنعه، بل أبيعه وأشتريه، والله لا يعاقب على البيع والشراء، فليس ذلك فى التوراة، وأنت تصنع الحديد ولا شأن لك بما سيعمل به ما دمت لا تعلم عنه شيئًا، ثم إنى لن أمسه بيدى، بل إنى مرسله

(١) قرية ظالمة : صـ٣٢.

إلى الرومان مع طفل لا يدرى شيئًا ولا يعاقب على ما يعمل".[١]

تلك هى فلسفة الضمير الجمعي، إذا وزعت الجريمة على عدد من الناس أصبح من المستحيل معاقبة الجاني أو حتى تحديده، وإذا كان الذى يعلم الجريمة لا يصنع أداتها، والذى يصنع الأداة لا يستخدمها فمن يُعاقب ؟ ومن يُحاسب ؟

إن هذا النبي (المسيح) يريد أن يضع الضمير فوق التدين، يريد ان يجعل للجماعات ضميراً طاهرًا قادرًا على هداية ضمير الفرد إن خرج عن المسار.

ويتجلى الصراع بين الضمير، والعقل فى حديث : (رجل الدهاء) للصديق، حيث يكون الضمير الضعيف نتاجًا لنظام القيم الضعيف، ذلك أن نظام القيم الناضج ينتج إحساساً قويًا قادرًا على التفريق بين الصواب والخطأ، لكن رجل الدهاء غير قادر على الوصول إلى الحقيقة، أهذا الرجل (يقصد المسيح) على حق أم على ضلال ؟

(١) قرية ظالمة : صـ٣٦.

" إنما أريد أن أعلم شيئًا واحدًا : أنحن على صواب فى اتهام هذا الرجل وصلبه، أم على خطأ ؟ احتكم إلى ضميرك وحده فهو الذى يهديك، ليس الأمر للضمير وحده، إنما يتعلق أكثر بالعقل، وعقلي هو الذى يوحي إلىّ أن فى دعوته خطرًا على بني إسرائيل، ولذلك طالبت بدمه، وأنى أريد أن أتبين هل هو حقًا خطر علينا ؟ أريد أن أعلم إلى أي طريق يسير بنا العقل إلى الحق أم إلى الضلال ؟ " [١]

ويجعل (محمد كامل حسين) الضمير على لسان الحواريين الملاذ الأخير، فلم يجدوا حلاً لما أشكل عليهم، وعلى المؤمين من قبلهم إلا الإيمان المطلق بالله وبالضمير، ولا يجب أن يكون فى وجود الشر والظلم فى العالم ما يعيق المؤمنين، وليس فى ذلك ما يدعو إلى الشك فى قدرة الله أو عدله وحكمته فيكون دعاؤهم :

" اللهم إنك أنعمت على الناس فوهبتهم الضمير، وهو روح منك، وجعلت أمره أمرك ونهيه نهيك، فمن أطاعه فقد أطاعك، ومن عصاه فقد عصاك، وتركت أمر اتباعه لنا، فاجعل أعمالنا فى حدود هذا الضمير.... فإنه لا خير وراء الضمير ".[٢]

---

(١) قرية ظالمة : صـ٤١.

(٢)قرية ظالمة : صـ١٦٥.

وإذا كان الله عز وجل لم يجعل للضمير قوة مادية تحمل الناس على اتباعه، فليجعل الله فيهم تلك القوة الروحية التى تجعلهم يهتدون به بكل رضا واختيار.

❁❁❁❁❁

**ثانيـاً : النظـــام :**

إذا كان حديث بني إسرائيل آنذاك كان يعتمد اعتمادًا مباشرًا على النقاش حول الإيمان والكفر، الخطيئة والتوبة، الحرام والحلال، فإن حديث الرومان كان دائمًا يدور حول مفاهيم أخرى : الشجاعة – الإقدام – مغالبة الصعاب – القتال – المجد – أو قل كل هذه المصطلحات تدور حول معنى واحد يجسد حال الرومان :

**إنـه النظـام.**

ما معنى كلمة النظام ؟ أهو مجموعة النظم الفرعية التى ترتبط مع البيئة بواسطة علاقات لتحقيق هدف، أم أنه مجموعة عناصر متفاعلة فيما بينها لأجل تحقيق هدف محدد، أم مجموعة من النظم

المتفاعلة ؟ فالكون نظام، والذرة نظام، والتجارة نظام والشريعة نظام.[١]

أما النظام عند الرومان فهو القوة، المجد، الفخر بالنصر، لكن أية قوة وأى مجد ؟ يقول على لسان أحد قواد الجيش الرومانى :

" إن روما تنتظر من كل من أبنائها أن يقوم بواجبه... سيقتل منكم فى الميدان عدد وسيبكيهم أهلهم، ولكن ميدان الشرف هو ميدان الخلود... وإذا كانت الأمهات لا تفهم ذلك فإنهن نساء وأنتم رجال تضعون المجد فوق الحياة ". [٢]

**لكن الجندي المسيحي يتساءل :**

ما هذا المجد ؟ أهو ذلك الموكب المضحك الذى يسير فيه القيصر وحوله الأسرى يجرون وراء مركبته ؟

---

وهذا الجندي المسيحي يدرك حقيقة الصراع الدائم بين النظام، والضمير، لكن يومًا بعد يوم يحقر فى عينه النظام، ويعظم شأن الضمير، لأنه بدأ يفهم الفرق بين ما **لله**، وما للناس، وما هو أمر **الله**

---

**(١) راجع : جلال العبد ومنال الكردى : مقدمة فى نظم المعلومات الإدارية – النظرية الأدوات – التطبيقات – الدار الجامعية الإسكندرية صـ ٤٩.**

**(٢) قرية ظالمة : صـ١٧٥**

وحده فأباحه الناس لأنفسهم ظلمًا، وأخذ يؤمن بالتواضع، والخير المطلق، والتسامح، وأدرك عبث ما تواضع الرومان على تقديسه والسعي إليه، والموت من أجله، فاحتقر المجد، والعظمة، وكل ما لم يكن الضمير مصدره.

وها هو الجندي المسيحي يطلب من قادته ألا يعلنوا حربًا إلا بعد أن يؤخذ فى أمرها رأى الجنود، فهم الذين سيقتلون، وأن يُقسم الجندى عند التحاقه بالجيش ألا يتعدى حدود بلاده، فالحكم بين الدفاع عن النفس والاعتداء يكون بحدود الوطن، وإلا فليوضع من بيدهم إعلان الحرب.

" تحت قبة خاصة يتشاورون فإن أقروا إعلان الحرب خدمة للأمة، اهدموا عليهم القبة وسيروا إلى الحرب قائلين إنها خدمة للأمة يجب أن يشترك فيها أولو الأمر والجنود سواء بسواء".[1]

فنظرية الحروب تقوم على أن رجلاً، أو بضعة رجال، أعز على الأمة من آلاف الجنود تحت عنوان : (النظام)، وأن الحروب تخلق فى المحاربين الفضائل كلها، ففي من تُخلق هذه الفضائل ؟

فى الذين يموتون ؟ أم فى الذين يعيشون ؟

---

(١) قرية ظالمة : صـ٢٣.

ويجسد (محمد كامل حسين) تلك القسوة المفرطة من القائد الرومانى للجندى الذى رفض قتل الأبرياء بأكذوبة الدفاع عن النظام، فقد حدد القائد طريقة الإعدام بأن تربط قدماه ويداه إلى أربعة خيول ويجره كل منها إلى جهة.

" إن النظام أجمل شىء فى الحياه، بل هو سر هذه الحياه، ومن حسن حظي أنى رب هذا النظام ولست عبدًا له، وهو الذى يجعلني أتحكم فى الرجال ولم يجعلهم يتحكمون فيّ.... إن النظام هو القوة التى تقهر أكبر الرجال إن كانوا تحت أمره، وترفع أصغر الرجال إن كانوا على رأسه، وقد يسلب العدد من الرجال حياتهم وهم له خاضعون، وهو مع ذلك شىء غامض لا يقوم إلا على أساس ضعيف من الخوف، ومن السهل أن ينهار ولكنه حين ينهار يقوم على أنقاضه نظام آخر يتحكم فى الناس تحكم النظام الأول ". (١)

ويظل الصراع دائمًا بين النظام، والضمير، ذلك أن الضمير قبس من **الله**، أما النظام عمل إنسانى خالص، ناقص، ومؤقت، وخاضع للتطور والتغير، فما تراه روما مجدًا تراه أورشليم ظلمًا واحتلالاً، وما يراه القائد انتصارًا يراه الجندى موتاً وضياعاً، وما تراه الدولة أساسًا يراه المواطن ضياعًا للحقوق.

(١) قرية ظالمة : صـ١٨٧.

**ثالثاً : الحـــب :**

(الحب هو **الله**، رأي لا يضع من قدر **الله**، ولكنه يرفع من قدرالحب) تلك هى الرؤية التى سعى (محمد كامل حسين) أن يؤكد عليها على لسان ذلك النبي سيسعى بنو إسرائيل لقتله لا لشىء إلا أنه يقول إن **الله** هو الحب.

**" فهل نقض المسيح من تقدموه أو اتبعهم فى كل ما أبرموه ؟**

**إن شئت فقل أنه ينقض كل شىء.**

**وإن شئت فقل أنه لم ينقض منه مثقال ذرة**

**لأنه نقض شريعة الأشكال والظواهر وجاء بشريعة الحب أو شريعة الضمير.**

**وشريعة الحب لا تبقى حرفاً من شريعة الأشكال والظواهر ولكنها لا تنقض حرفاً واحدًا من شريعة الناموس بل تزيد ".** (١)

وعلى هذا الأساس يكون خير ما يعبد به الناس **الله** عز وجل هو أن يحب بعضهم بعضًا، والحب لا يدعو إلى الشر، والدوافع تكون حسنة أوقبيحة حين تتفق والضمير أو تختلف وإياه.

---

(١) **عباس محمود العقاد : حياة المسيح فى التاريخ وكشوف العصر الحديث : دار الهلال : صـ١٢٨.**

" فإن الشريعة الموسوية أكدت العدل أكثر من تأكيدها الحب،... إن سر السعادة أن يسعد الإنسان إنسانًا آخر ولا يكون هذا إلا بالحب ". (١)

بتلك الرؤية تصعب الإدانة وإذا كانت الخطيئة خروجًا عن حدود **الله، فالله** وحده هو الذى يعاقب عليها، وليس لخاطىء أن يقتل خاطئًا مثله، وإن اختلفت درجات الخطيئة إنما يكون ذلك للمعصومين، ومن منا يَدّعي لنفسه تلك العصمة ؟

" وإن علماء إسرائيل غضبوا اليوم غضبة كبرى إذ حكموا على إمرأة بالرجم فلما هم الناس برجمها قال لهم السيد المسيح: " من يكن منكم بلا خطيئة فليكن أول من يرميها، فانصرف الناس مشفقين من هذا القول ". (٢)

لكن بنى إسرائيل رأوا فى ذلك فتنة تحرض الناس على الشك فى أوامر الكتاب فضلاً على مافيه من قضاء على أساس من أكبر الأسس التى يقوم عليها النظام الاجتماعى :

" ويلزم شريعة الفرح بالعقاب، والسعى وراء العورات، من يسوق المرأة الخاطئة فى المواكب، ويخف إلى مواقف الرجم،

---

(١) قرية ظالمة : صـ٢٤٠.

(٢) قرية ظالمة : صـ١٥٥.

كأنما يخف إلى محافل الأعراس، ويلزم فى شريعة الحب من يبهت ذلك الجمع المنافق ويكشف له رياءه ويرده إلى الحياء، وقد ارتد إلى الحياء حين سمع السيد يناديه من لم يخطىء فليرمها بحجر؟ " [1]

والناس فى هذا الأمر أسرى لحبين : حب النجاح، وحب المرأة، فها هى الزوجة الجميلة تقول لرجل الاتهام الذى أبلى بلاء حسنًا فى دار الندوة باتهام المسيح بكل الذنوب التى أحفظت عليه بنى إسرائيل، وجمعت عليه التهم، ما جعل جريمته واضحة لا تُقبل فيها رأفة فحكموا عليه بالصلب، وهنأوا رجل الدهاء على بلاغته وحرصه على الإيمان و علمه بالتوراه :

ألا يزال النجاح معبودكم الأكبر، إنه ليفترسكم ويقضي على فضائلكم كلها

إن تعلقي بالنجاح يرجع إلى حبي لك، إنكن لا تعبأن بمن يخفقون إنا لنزهد فى الجاه إذا صحبه نقص فى إخلاصكم لنا، وأخشى أن تكون قد بلغت هذا الحد من النقص، وما الذى دفعك إلى هذا الاتهام العنيف، أكان ذلك حبًا فى النجاح أم كنت مخلصًا ؟ [2]

(١) العقاد : حياة المسيح. صـ١٢٩.
(٢) قرية ظالمة : صـ١٢٩.

إن جرم ذلك الرسول، أو ذلك الرجل من وجهة نظر بنى إسرائيل أنه أنكر صفات **الله** فى التوراة، فهو لا يقول بجبروته، وانتقامه، وإنما يقول إن **الله** هو الحب :

" ويريد أن يخاف الناس **الله**، وإنما يريد لهم أن يحبوه لأنه يحبهم وفى ذلك خروج على تعاليم التوراة لابد أن يؤدي إلى الفوضى ".[1]

وفى شريعة الحب، والضمير ليس شىء يمكن أن يكون أكبر من حب الوطن، وأجمل منه إلا حب الإنسانية كلها، فهو طور من الرقى الخلقى أروع من حب الوطن ولا يصح أن نعتبره عيبًا أو نقصًا:

" بل سيأتي يوم يكون فيه النظام الاجتماعى كافيًا لإقناع الناس أن حب الإنسانية كلها، والدفاع عنها أجدى على الوطن من حب الوطن وحده، عند ذلك يبدأ الناس فى التفكير الإنسانى، وعند ذلك نراهم يفضلون خدمة الإنسانية على خدمة الوطن،

(١) قرية ظالمة : صـ٢٨.

ولا يكون فى ذلك خيانة له بل يكون أجمل دفاع عنه وأكثر نجاحًا ". [١]

وبتلك الرؤية تصبح الرهبانية أحد مظاهر الأنانية مهما يكن فيها من إرهاق وحرمان :

" إنه لا يراد به إلا أن ينفع الراهب نفسه فى الدنيا أو فى الآخرة ولا ينفع تبتله أحدًا غيره ".[٢]

إن شريعة الحب المسيحي تعصف بكل شكل ظاهر، إن أهل أورشليم أبوا إلا أن يطفئوا نور الله فأظلمت الدنيا، وهذا الظلام أية من عند **الله** تدل على أنه حرمهم نور الحب، نور الإيمان، وهدى الضمير، إنهم لم يستوعبوا قول المسيح :

" وسمعتم أنه قيل : " تحب قريبك، وتبغض عدوك "، وأما أنا فأقول : "أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضكم..... وأى أجر لكم إن أحببتم من يحبونكم.... وأى فضل تصنعون إن خصصتم إخوانكم بالسلام".[٣]

---

(١) قرية ظالمة : صـ٨٧.

(٢) قرية ظالمة : صـ٤٤.

(٣) الكتاب المقدس : انجيل مَتّى ٥ : ٤٣ – ٤٧ دار الكتاب المقدس.

**البنــاء الفنى :**

اتفقنا من قبل أن رواية (قرية ظالمة) هى الرواية الأولى والأخيرة لـ (محمد كامل حسين)، والغريب أنها أصبحت رواية ذات علامة بارزة فى الرواية العربية الحديثة، وضمنت لكاتبها – رغم كونها وحيدة – هذا الخلود وهذا التفرد، ربما لأنها تعرضت لحدث جلل فى التاريخ الإنسانى، قصة المسيح، ربما لكونها أولى روايات اليوم الواحد فى الكتابة العربية، ربما لتلك الرسائل الكلاسيكية، والأخلاقية التى ضمنتها تلك الرواية، ربما كل ذلك، لكن الأمر الذى لا يقبل الشك كون الرواية تعبر عن غلبة صوت المؤلف على ما سواه:

" لأن هذا التقسيم الثلاثى بين أهل أورشليم – ألم يكن من الأفضل استخدام الاسم العربي ؟ من يهود، وحواريين، ورومان، يجعل الحدث الواحد مجسدًا قد تم إبرازه من زوايا عديدة وبأجواء متباينة، فهذه الكتل الثلاث تسهم فى تشكيل الواقع بأبعادها التاريخية والإنسانية، بالإضافة إلى ما فى داخل كل منها من أصوات، واختلافات تساعد على شيوع هذه الحوارية المبثوثة فى تضاعيف الخطاب الروائى ". [1]

ولأن تجربة (قرية ظالمة) تملك جرأة البدايات وحيرة النهايات، هى الرواية التى خلدت اسم مفكر، وعالم، رغم كل ما يوجه

(١) قرية ظالمة : المقدمة : صلاح فصل: صـ١٣.

لها من انتقادات التحليل العقلى المطول للمواقف، والمذاهب، والآراء، بحيث لم يترك الكاتب للمتلقي فرصة استخلاص النتائج بل جعله دائمًا متلقيًا سلبيًا يكتفى باعجاب، أو تساؤل، أو اندهاش من الفكرة أكثر من ذلك التشوق الأبدى للتشكيل الفنى، الأمر الذى يجعل دراسة البناء الفنى فى الرواية أمراً شديد الصعوبة، ذلك أن المؤلف ترك لنفسه الحرية المطلقة فى تشكيل ذلك البناء بما يخدم الفكرة، وبما يسمح له الظهور الكامل وقتما أراد وكيفما أراد، مما يستلزم دراسة التشكيل الفنى فى ضوء تفرد التجربة.

**١- دلالة العنوان :**

لماذا اختار المؤلف الظلم صفة لهذه القرية ؟، إنها : (قرية ظالمة)، العنوان جاذب للانتباه ومعبر عن مضمون الرواية، وهو فى الوقت ذاته موجز يعتمد على الوصف المباشر، إنها قرية ظالمة لغيرها، وظالمة لنفسها ؛ لأنها قتلت الضمير الإنسانى، وليس حديث هذه القرية من أبناء القرون الأولى، بل هى نكبات تتجدد كل يوم، والدنيا لا تستقيم فى تلك القرية إلا عندما يكون الناس طبقات، الجريمة ترتكب فيها تحت مسمى الجماعة.

" ولأن الذنب موزع فيها توزيعًا يجعل العقاب الرادع ظلمًا إذا عوقب به فرد بعينه، ولا يجوز على **الله** أن يظلم أحدًا، أما

العقاب العادل على الذنب الفردي فإن التوزيع يجعله أقل من أن يحفل به أحد، أتراك تفهم شيئًا من ذلك ". [1]

إن علماء تلك القرية وحكامها أيقنوا من داخلهم بخطأ حكمهم على المسيح، لكنهم خشوا أن يخرجوا إلى الناس معترفين بخطئهم معلنين التوبة، فهم لا يملكون شجاعة الاعتراف بالخطأ، فليتركوا هذا للجماعة فهى أقدر على الاندفاع منها إلى التعقل، وأقدر على التمادى فى الباطل منها على الرجوع إلى الحق :

" وبينما هم كذلك إذ دخل عليهم رجال المال، والتجارة، والصناعة، و ذوو النفوذ الدنيوى، جاءوا يهنئونهم على حكمهم الصائب، فلما وجدوا عندهم التردد، والشك غضبوا وقالوا لهم ماخطبكم ؟

أتظنون أنكم تستطيعون أن تعدلوا عن رأى رأيتموه بعد أن ذاع خبره ؟ إن حكمكم أطلق سيلاً من الغضب لن يستطيع أحد أن يقف أمامه.

وماذا يقول الرومان لو ذهبتم إليهم اليوم تنقضون ما قررتم من قبل ؟

أتحسبون أنهم يظنون بكم الجد ؟

أو يقرون لكم بعد اليوم رأيًا ؟

إن الشعب هائج ولن تهدأ ثأرته حتى يصلب هذا الرجل اليوم ". [2]

---

(١) قرية ظالمة : صـ٣٧.

(٢) قرية ظالمة : صـ٩٠.

لقد سار المسيح إلى الصلب ولم يكن فى بنى إسرائيل من يعلم عنه شرًا، أو يريد أن يقتله عن عقيدة، واقتناع، وهكذا تمت أكبر جرائم التاريخ جريمة الحكم على المسيح بالصلب فى تلك القرية الظالمة دون أن يعلم أحد من أهل أورشليم من الذى يريد قتله، ولا على من يقع وزر هذه الجريمة الشنعاء.

هذا هو سبيل الضلال التى أوغل فيها الناس فى تلك القرية الظالمة (أورشليم) وهى سبيل لا تزال مفتوحة أمام الناس، ولا يزالون يمعنون فى السير فيها، وسيظلون كذلك حتى يهديهم الإيمان إلى سبيل الرشد، إلى الضمير.

**٢- إلغاء منطق الحبكة (تفتت البنية السردية وانكسار المبنى) :**

القصة هى المادة الحكائية المشكلة من المكونات السردية المعروفة : (الشخصيات – الأحداث – الراوي...) فهى تشكل بنية السرد المتمثلة فى الأحداث، وترابطها، وتسلسلها فى علاقاتها بالشخصيات، فى فعلها، وتفاعلها، فى حين تمثل الحبكة :

" طريقة الحكى وآلية الاشتغال التى تحقق هيكلية خاصة لتلك المادة التى تنهض عليها الرواية، ومن ثم ترتسم خصوصية كل إبداع روائى انطلاقًا من طبيعة التشكيل ونمط الانتقاء الذى يسم الخطاب الروائى ". (١)

ويمكننا القول أن منطق الحبكة قد تبدد فى رواية : " قرية ظالمة "، مما أدى إلى تفتت البنية السردية، فلم نجد تسلسلاً ولا ترابطًا فى الأحداث يسمح بذلك الصراع المتصاعد للحدث وإنما وجدنا حدثًا واحدًا من ثلاث رؤى لا يكمل بعضها بعضًا.

---

(١) محمد أيوب : الشخصية فى الرواية الفلسطينية المعاصرة دار غزة ١٩٩٦ صـ٨.

وراجع : بنية الحدث فى الرواية الجزائرية الجديدة – البحث عن الوجه الأخر نموذجاً : بشير محمودى. ٢٠٠٨.

" وهذه سمة عامة لكتابات هذه الكوكبة من المفكرين الذين يمارسون القص باعتباره إحدى وسائل أداء رسالتهم الثقافية، والأدبية، لا باعتباره مهنة يحترفونها ويهبون حياتهم لتنميتها، وتطويرها كما كان يفعل الروائيون الكبار".[1]

فعلى الرغم من وجود ذلك التقسيم الثلاثى بين أهل أورشليم من يهود، وحواريين ورومان، إلا أن هذه الكتل الثلاث لم تسهم فى تشكيل بنية فنية تصاعدية للحدث، فترى الكاتب فى الرؤية الأولى: يعرض قضية المسيح من خلال حوار رجل الإتهام وامرأته الجميلة، و خلال حوار الحداد مع الشيخ والتاجر، ومن خلال نقاش المفتي مع ابنته وزوجه وتراجعه عن الفتوى، ومن خلال بعث (لازار)، أو إعادة إحيائه، أو من خلال رؤية (قيافا) الحاكم للحكم، والعلاقة بين الحاكم والرعية، ثم أخيرًا من تلك المحاكمة التى دارت فى دار الندوة والتى انتهت بالسير نحو صلب المسيح.

أما الرؤية الثانية للحدث : فكانت من خلال الحواريين أفرادًا وجماعة، أما أفرادًا : فتمثلت فى (مريم المجدلية) والجندى المسيحى وتلك المريضة التى شفاها المسيح، أما الجماعة : فمن خلال آراء المسيحيين واختلافهم حول موقفهم من المسيح، فهل ما فعله

(١) قرية ظالمة : المقدمة : صـ١٥.

الحواريون مع المسيح حين تركوه للرومان كان صوابًا أم خطأ ؟، ورأى الكاتب أنه من جهة ما هو وحي ودين كان صواباً، ومن جهة ما يدركه العقل وما يقتضيه الفعل كان خطأ :

" فإنهم بهذا الإحجام عن نصرته خدموا الدعوة المسيحية خدمة كبرى، فإن الدين المسيحي تحددت مبادئه، وتكونت فلسفته فى ذلك اليوم، ومن أحداثه خلقت الصفات الغالبة على هذا الدين الجديد ". (١)

أما الرؤية الثالثة : فهى رؤية الرومان، وهى رؤية تجسد أن النظام هو أساس تلك العظمة الرومانية، وأى مساس بقدسية ذلك النظام مساس بكيان الرومان، وجاءت قصة الجندى الثمل المحكوم عليه بخمسين جلدة لبقائه خارج المعسكر أكبر دليل على الحفاظ على ذلك النظام، والأمر ذاته فى قصة الجندى الذى يراه الرومان خائناً لأنه لم يخبرهم بأمر الثغرة التى تمد المدينة المحاصرة بالمؤن، والطعام، وتكون محاكمته يوم جمعة، ويكون عقابه يوم السعي إلى صلب المسيح، وعلى الرغم من ظهور رجل الاتهام فى هذا المشهد وهو واحد من بني إسرائيل إلا أنه لم يستطع أن يحقق ذلك الترابط فى الأحداث الذى سعى إليه الكاتب بعقد تواصل بين محاكمة الجندى المسيحى، ومحاكمة السيد المسيح، وما ظهور (بيلاتوس) القائد الروماني فى أورشليم، أو الفيلسوف اليونانى إلا محاولة لعرض آراء الكاتب عن الظلم، والنظام أو العدل، والبحث عن الهداية.

---

(١) قرية ظالمة : صـ١٥١.

لقد مال (محمد كامل حسين) فيما يعرف فى علم الرواية بالسرد الـذاتى ويميز (توما شسكى) بين نمطين من السرد :

" السرد الموضوعى: ويكون فيه الكاتب مطلع على كل شىء، ويكون الراوى محايدًا للقارىء ليفسر ما يحكى له ويؤوله، أما السرد الذاتى : فتقدم فيه الأحداث من زاوية نظر الروائي، فهو يخبرنا بها ويعطينا تأويلاً معينًا يفرضه على القارىء ويدعوه إلى الاعتقاد به ". (١)

ولغة القص محكومة بمستوى واحد لا تتعداه، هى لغة مباشرة لا تعتمد على التعقيد فى البناء، وإنما تقدم رسائل مباشرة واضحة فى فترة محتدمة هى فترة ما بعد نكبة ١٩٤٨، والغريب أن (محمد كامل حسين) يقدم من خلال ذلك البناء دعوة صريحة للسلم فى مطلع الخمسينيات !

(١) آمنه يوسف : تقنيات السرد بين النظرية والتطبيق، دار الوحدة صـ٣٠.

**٣- تعدد الشخصيات واختفاء البطل :**

تزدحم الرواية بكثير من الشخصيات، وبالأصوات المتعددة، لكن شخصية المؤلف كان الصوت الحقيقى فى تلك الرواية حتى وإن ظهرت بعض الشخصيات الثانوية التى صاغها الكاتب ببراعة حين منحها حقها من التفاصيل، والحضور، أو جعلها الكاتب معادلاً رمزياً لدلالة معينة أراد بها الحديث عن الفكرة الرئيسية.

وإذا كانت الشخصية فى البناء الفنى للرواية :

" العنصر الوحيد الذى تتقاطع عنده كافة العناصر الشكلية الأخرى بما فيها الإحداثيات الزمنية الضرورية لنمو الخطاب الروائى واطراده ". (١)

إلا أن شخوص :(قرية ظالمة) ما هى سوى كائن من ورق فما هى إلا منتج المخزون الثقافى للمؤلف، بحيث يسمح الكاتب لنفسه أن يضيف، ويحذف، ويبالغ ويضخم فى تكوينها، وتصويرها، بشكل يستحيل أن يكون انعكاسًا لشخصية واقعية، إنما هى شخصية ورقية.

" لكن تشابك الأصوات، واشتجار النبرات، لا يلبث أن يتمحور حول قضايا جوهرية مثل مفاهيم الجبن، و الشجاعة،

(١) محمد رياض وتار : شخصية المثقف فى الرواية السورية دار الشعب صـ١٥٢.

الخلود و الزوال، الحرب و السلم، وإبراز الحجج، و القرائن التى تفيد فى هذا الجدل " [1]

**فالشخصيات ما هى إلا صدى لفكر المؤلف وذرائع لهزيمة معارضيه:**

**فرجل الاتهام صدى ← لشهوة النجاح.**

**والمفتي صدى ← لنصف الحق.**

**ولازار صدى ← للبعث بلا روح.**

**وقيافا صدى ← لشهوة الحكم.**

---

**ورجال المال والتجارة والصناعة صدى ← للنفوذ والسطوة.**

**والجماهير صدى ← للجريمة الموزعة.**

**والمجدلية صدى ← للتطهر الحقيقى.**

**والجندى المسيحى صدى ← لخيانة الظلم.**

---

(١) قرية ظالمة : المقدمة صـ١٤٠.

**أما الحواريون** : فتجسيد للفكر المسيحى المتوارث لهذا الإحساس العنيف بالإثم والخطيئة، وما وقر فى قلوبهم أنه لا يصيب أحدًا من الناس أذى إلا كان مرجعه إلى ذنب اقترفه :

" والمسيحيون المؤمنون أحرص على تجنب الخظيئة منهم على الإقدام على الخير، وخوفهم الظلم أشد من حرصهم على العدل وخشيتهم من النار أكبر من سعيهم إلى الجنة ". (١)

هكذا تصير الشخصيات صدى لأراء المؤلف فتتعدد وتتزاحم، ولكنك دائماً تشعر أنها شخصيات ورقية لم تتخذ البعد التراثى الذى يستخدمه المؤلف فى نقل أفكاره، وآرائه، ومعتقداته، وكأن (محمد كامل حسين) أراد أن يجعل تلك الشخصيات أبواقاً.

" للتحليل الميتافيزيقى للضمير الأخلاقي المجرد ". (٢)

فتقدم الشخصيات بطانة أيديولوجية لرؤى الكاتب، وليس أدل من ذلك على شخصية الجندي المسيحي الذى اتصل بالحواريين وتشرب منهم هذه القناعة الإيمانية بدعوة السلام حتى مع الأعداء.

---

(١) قرية ظالمة : المقدمة صـ١٥٥.

(٢) قرية ظالمة : المقدمة.

**٤- اللغة وحضور النسق الثقافى :**

لعل أهم ما يميز : (قرية ظالمة) هو ذلك النسق الثقافى للغة الذى يتدفق فى سهوله،ويسر دون تكلف، أو تصنع، أو تعقيد، فالكاتب حريص على إظهار آرائه بوضوح دون حدوث لبس أو تشتت.

واتفقنا على أن الكاتب مارس العمل الأدبى باعتباره أحد وسائل أداء الرسالة الثقافية، والأخلاقية، فى المجتمع المصرى فى فترة الخمسينيات، الأدب بالنسبة له لم يكن مهنه وإنما رسالة أخلاقية قادرة على التغيير فى المجتمع.

واللغة عند (محمد كامل حسين) كائن حى قابل للتجديد والتغير والتطور، لقد دعا أن نضع للفصحى قواعد جديدة تكفل لنا صحة الكلام من غير طريق النحو القديم :

" والقواعد القديمة ليست تيسيرًا للنحو القديم، ولا إيضاحًا له، وليست شرحًا لغوامضه، وإنما هى بديل منه، إذ هى تقوم على أسس تختلف اختلافًا جوهريًا عن الأسس التى أقام عليها النحاة علمهم منذ اثنى عشر قرنا". (١)

لقد دعا (محمد كامل حسين) – وهو عضو بمجمع اللغة العربية – إلى تيسير اللغة حتى لا تكون صعوبتها مدعاة لانصراف الناس عنها وإعراضهم عن معرفتها وتذوقها، ولهذا اتسمت لغته فى :(قرية ظالمة) بسمعة أساسية لم يتخل عنها طيلة الرواية :

**الوضوح والمباشرة :**

اعتمد الكاتب فى روايته على لغة مباشرة لا تحتمل التأويل، ولا تفترض الغموض، والتعقيد، وكان ذلك نابعًا من رغبته فى

(١) محمد كامل حسين ك النحو المعقول صـ٢٥.

توصيل الرسالة، الأمر الذى جعل تلك اللغة قادرة على وضع تصورات عصرية لمشكلة كانت محتدمة فى فترة الخمسينيات يأتى على رأسها قضية السلام العالمى بعد أن خاض العالم دمار حربين عالميتين وذاق الأمرين فيها.

" ويدهشنى قول الذين يرون أن الحرب تخلق الفضائل فى الجماعة وهو قول لا يستقيم عقلاً، إن الجماعة فى هذا الشأن فكرة تصويرية لا حقيقية واقعية فالفضائل لا تكون إلا فى الأفراد، والحروب تقبل أكثر الأفراد شجاعة وتضحية وتترك غيرهم ينعمون بالحياة دونهم ". (١)

وأنت لا تلمح فى تلك الرواية من قريب، أو من بعيد، بالتصريح، أو بالرمز عن ذلك الصراع المحتدم فى الخمسينيات بين العرب، والصهيونية، فهو لا يريد أن تكون لغته لغة سياسية وإنما لغة أخلاقية تقوم على المعايير الإنسانية تمعن فى التحليل الميتافيزيقى للضمير الأخلاقى المجرد.

انها لغة بسيطة واضحة مباشرة تركز حول الحدث دون الإغراق فى شاعرية مصطنعة، تنحاز إلى إبراز الأفكار دون مواربة، أو غموض، أو تعقيد.

(١) قرية ظالمة : صـ١٧٨.

لقد كان (محمد كامل حسين) يؤمن أن الفصحى فى أزمة، وأن المحاولات التى بذلت منذ نحو قرن لحل الأزمة لم تصادف إلا نجاحًا ضئيلاً، ويعتقد أن الأزمة ترجع إلى طبيعة القواعد التى لم يستسيغها، المحدثون، ولذا عمد أن تكون لغته فى (قرية ظالمة) شفافة تنحاز إلى إبراز الهدف دون تعقيد، تنتفى فيها شعرية اللغة لصالح فنية الفكرة وإن كان هذا لا يعنى خلو لغته من الجانب الجمالي، بل على العكس هناك مواضع كثيرة تظهر فيها هذه الشاعرية مثلما يقول فى افتتاحية الرواية:

" كان يومًا ضل فيه الناس ضلالاً بعيدًا، وأغلوا فى الضلال حتى بلغوا غاية الإثم، وطغى عليهم الشر حتى عموا عن الحق، وهو أوضح من فلق الصبح، وكانوا مع ذلك أهل دين وعلم وخلق.. وكانوا أهل شورى فأضلتهم الشورى، وكان حكامهم الرومان أهل نظام فخذلهم النظام ". (١)

(١) قرية ظالمة : صـ١٧.

# الخاتمة

١ - محمد كامل حسين فيلسوف وعالم ومفكر كان صاحب رؤية وموقف فى الحياة وفى الوجود واللغة والمعرفة.

٢ - تعد رواية (قرية ظالمة)بداية رواية اليوم الواحد فى الأدب العربى.

٣- مع أن الرواية تحفل بأصوات وشخصيات متعددة إلا غلبة صوت المؤلف كان الطابع المميز فيما يطلق عليه السرد الذاتى.

٤- تمحور البناء الفكرى لهذه الرواية حول ثلاث أفكار رئيسية هى : (الضمير - النظام - الحب)

٥- مال (محمد كامل حسين) فى روايته قرية ظالمة إلى تفتيت البنية السردية من خلال إلغاء منطق الحبكة الفنية، واعتمد فى ذلك على ما يطلق عليه السرد الذاتى الذى تقدم فيه الأحداث من رؤية الروائى، فهو يخبرنا بكل شىء ويعطينا كل شىء ولا يمنحنا قدرًا من التأويل، أو التفكير.

٦- على الرغم من ازدحام (قرية ظالمة) بكثير من الشخصيات، والأصوات المتعددة، إلا أنها صدى لصوت المؤلف، فما كانت الشخوص إلا منتج المخزون الثقافى للمؤلف مما أدى إلى تعدد الشخصيات، واختفاء البطل ؛ لأنها تمثل بطانة أيديولوجية للمؤلف.

٧- أهم ما يميز لغة : (قرية ظالمة) هو الوضوح، والمباشرة، وهى لغة متسقة مع قناعة المؤلف، ودعوته، ومؤلفاته نحو إيجاد فصحى جديد تتسم بالقدرة على التواصل المباشر بين المبدع والمتلقي، بين الكاتب والقارىء، بين المرسل والمستقبل.

# المصادر والمراجع

١- آمنه يوسف : تقنيات السرد بين النظرية والتطبيق – دار الوحدة.
٢- بشير محمودى : بنية الحدث فى الرواية الجزائرية الحديثة – البحث عن الوجه الآخر نموذجًا – مجلة الثقافة – وزارة الثقافة والاتصال – الجزائر ١٩٩٧.
٣- جلال العبد – منال الكردى : مقدمة فى نظم المعلومات الإدارية – النظرية الأدوات – التطبيقات – الدار الجامعية الاسكندرية.
٤- جمال الدين سامى : الدكتور محمد كامل حسين العالم والأديب – مجلة المجلة العدد ١٢٢ فبراير ١٩٦٧.
٥- شكر الماضي : أنماط الرواية العربية – عالم المعرفة – العدد ٣٥٥.
٦- عباس محمود العقاد : حياة المسيح فى التاريخ وكشوف العصر الحديث – دار الهلال.
٧- محمد كامل حسين : قرية ظالمة : الهيئة المصرية العالمة للكتاب ١٩٩٧.
وحدة المعرفة : مكتبة النهضة المصرية القاهرة.
النحو المعقول : مكتبة النهضة المصرية القاهرة.
الوادي المقدس : دار الشروق – الطبعة الثانية – ٢٠٠٨.
٨- محمد أيوب : الشخصية فى الرواية الفلسطينية المعاصرة – غزة ١٩٩٦.
٩- محمد رياض وتار : شخصية المثقف فى الرواية السورية - دار الشعب سوريا.
١٠- الكتاب المقدس : طبعة دار الكتاب المقدس.